



يشكّل التاريخ ، بمادته الفكرية أو بموروثه التربوي ، أهم أساس من أسس بنيتنا النفسية والذهنية ؛ ولعل العادات والتقاليد أهم صور مخلفات "تاريخنا" متفاعلاً مع حاضرتنا ؛ وهنا يكمن جوهر "مشكلتنا الأخلاقية" ! وما القيم والمبادئ المنتخبة " ، أو الباقية ، إلا صورة من صور تجارب الإنسان مع الماضي والحاضر ، وخلاصة من خلاصاته !

وإذا تأملنا جيداً الدور الحقيقي والواقعي للتاريخ في حياتنا التي نعيشها وجب علينا "لزاماً" أن ندخل في مشكلة التاريخ لتسخيره "برمته" فيما يصب بمصلحتنا ولتجنب مضار مخلفاته وترسباته ! وكما أنه لا يوجد تاريخ نظيف بأكمله ، أو مشرق أو سعيد برمته ، فالآثار كذلك غير إيجابية . بمطلقها ما لم يتم التعامل مع منشأها تعاملًا حكيمًا دقيقاً ! وهنا دور الأصفياء ، المخلصين للإنسانية وخالقها ! فالترفع عن نبش الماضي والتعالي عن المخاصمة وإعلان المسامحة وإقرار التودد . مع جماله . لا يكفي وحده لكي يحل مشكلة مخلفات التاريخ إذ يجب على الخُص من أصفياء الصالحين مراجعة التاريخ والعمل على وضع حلّ شامل ومناسب لهذا العصر وأهله !

وكما نقرّ بالصعوبة البالغة لإيجاد هكذا حلّ ، ولنجاعة ممارسته "الملحوظة والسريعة" ، فإننا نوّكد على عدم استحالة أبداً . فقد كانت الأمور أعقد من ذلك بكثير في الجاهلية "القديمة" فأتى الإسلام وجمع القلوب وطهرّ الأنفس ؛ فإذا كان الإسلام ما زال موجوداً ، وسيرة "نبيه" - ﷺ - الشريفة ماثلة أمام أعيننا ، ودماء المخلصين من شهدائه لم تجف بعد زوداً عنه . فأين الاستحالة إذن ؟!

نستطيع أن نسمع وجهة نظر اليائسين أو المتشائمين ونقدّر وضعهم ونعمل على تسويته ، ونستطيع أن نصغي إلى منطق العقل ونمضي بالنهج المفترض ؛ ويمكننا أيضاً أن نسمع ونصغي إلى غير ذلك ! بمعنى : إذا عكسنا النظرة التي أشرنا إليها ، وهي الفعل الطبيعي لأي عاقل ، فإنه لن يكون باستطاعتنا فعل شيء ؛ أو إذا بخلنا بالثمن ! فلا يوجد شيء مجاني ، ولا يصنع الأمر العظيم بسهولة ، وطوبى للأبطال !

يحتاج أمر الإصلاح إلى نفوس رضية وقلوب صادقة وصدور واسعة وهمم عالية .. كما يحتاج إلى تضافر الجهود واجتماعها على هذا الهدف النبيل ! يجب أن يُنظر إلى المادة التاريخية أو إلى موروثنا الثقافي والتراثي من النواحي العلمية الصرفة كعلم النفس والتركيبية الإنسانية العامة ، ومن الجهة التاريخية البحتة كدراسة تسجيل الوقائع والأحداث مع النظر في ظروف عصر المؤرخ نفسه لا الحقبة التي يتحدث عنها فحسب ، ومن الناحية الفلسفية بما تقيده من ربط منطقي للأحداث بتسلسلها وتقاطعاتها . أي : يجب أن يُعطى الموضوع ، كل موضوع وكل جهة ، حقه من الدراسة والبحث ! إذا الأمرُ صعب وطريقه شاق ، ولكن ألا يستحق عناق أبناء أعداء الماضي ، أو أعداء الأمس ، كل جهد نبيل وشريف ؟! ألا يستأهل "مجتمع مثالي" التضحية والفداء ؟!

لا أسهلّ الصعب ، ولا أهوّن الأمور ؛ ولكن أنظر بجد إلى الحقائق التاريخية وما صنعه عظماء الإنسانية ، ابتداءً من الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيد الخلق "المصطفى" - ﷺ - إلى آخر المصلحين ، في مجتمعاتهم الضيقة أولاً ثم في الإنسانية جمعاء ! يمكن للتاريخ أن يكون في خدمتنا كما يمكن أن يكون في غير صالحنا ! الأمر منوط بنا ! فإما أن نتفاعل تتفاعل المخلصين لإنسانيتهم ودينهم فنقرأ ونهذب ونعمل بصدق وإخلاص ، وإما أن نبقي أسرى الجمود في قفص العداء وسجن الهوى والعصبية ، بعيدين عن إنسانيتنا التي فطرنا الله عليها .

يستحق الأمر نظرة تأمل ووقف صدق مع النفس ، فإما موقف إنساني طاهر يتمثل بوضع جميع الإمكانات في خدمة هذا المشروع الإنساني الراقى والبالغ الأهمية ، من دعوة صالحة بالغيب - وهذا أضعف الإيمان - إلى كلمة طيبة بنيت صادقة ، إلى عمل أو مساهمة .. وإما يأس وإحباط فاستسلام وخسارة !

بقلم

**د. سامر محمّد الحامد علي**

باحث وكاتب ومدير مركز الصفوة للدراسات

دمشق - الجمهورية العربية السورية

Samsafwaweb@yahoo.com